فرانسوا ميتران

شيخ الاشتراكيين

سكت دهرًا .. ثم نطق كفرًا ..

هكذا يقول خصومه الآن ، والخصوم كثيرون ، ويزدادون كل يوم مع اشتداد وطأة المرض عليه ، وهو يقاوم المرض اللعين ببسالة وبابتسامة فيها سخرية ، وفيها – رغم الألم المبرح – تفاؤل .

فبعد فترة صمت طويلة أدلى بحديثين طويلين إلى اثنتين من وسائل الاعلام فى بلاده . أولاهما صحيفة « لوفيجارو » الواسعة الانتشار والثانية القناة الثانية بالتليفزيون والحديثان نشرا وأذيعا فى يومين متتاليين ، وهو فى هذين الحديثين ينحو إلى الدفاع عن نفسه ، ولا يأبه بمهاجمة خصومه الذين وجهوا إليه تهما تصل إلى حد الخيانة العظمى !

وقد جاءت هذه الاتهامات الخطيرة فى كتاب من ستمائة صفحة صدر فى سبتمبر ١٩٩٤ بعنوان :

« شباب فرنسى UnejeunesseFrancaise » وهو من تأليف صحفى يسارى ، وفيه يقول إن راعى الاشتراكية لفرنسية كان فى شبابه عنصريا معاديا للسود والملونين ، وكان يشترك فى مظاهرات ضد السماح بالتحاق أبناء المستعمرات فى الجامعات الفرنسية ، وأنه كان يرى أن هذه الجامعات يجب أن تقتصر على البيض وحدهم ، أما الأجناس الأخرى فلا حق لها فى التعليم الجامعى !

والتهمة الأهم والأخطر التى تضمنها الكتاب هى أن لرئيس الفرنسى الذى تولى زعامة الحزب الاشتراكى لعشرات السنين ، انضم إلى معسكر الأعداء أثناء الحرب العالمية الثانية ، والمقصود بالأعداء هنا هم الألمان النازيون الذى احتلوا فرنسا وساموا الشعب الفرنسى سوء العذاب ، مما دعا الفرنسيين إلى الانضواء تحت راية كتائب المقاومة السرية التى قاتلت ببسالة ضد هؤلاء الغزاة المحتلين .

وفى ذلك الوقت لجأ النازيون الألمان إلى تشكيل حكومة عميلة من بعض العناصر الفرنسية التي قبلت التعاون معهم ، وهى التى عرفت باسم حكومة فيشى وكان يرأسها مارشال فرنسى اسمه بيتان .. وما كادت الحرب تنتهى بهزيمة النازية فى المانيا وانتصار المقاومة الفرنسية التى كان يوجهها الجنرال ديجول من منفاه الاختيارى فى لندن . حتى بدأت عمليات الإمساك بعناصر الخيانة الذين تعاونوا مع حكومة فيشى وفى مقدمتهم المارشال بيتان نفسه الذى لم يشفع له أنه كان معلما لديجول فى الأكاديمية العسكرية الفرنسية ، وإنه حقق انتصارات مبهرة لفرنسا فى الحرب العالمية الأولى . فقد أصر ديجول على محاكمته ، وصدر عليه حكم بالاعدام رميا بالرصاص ، ثم خفف إلى السجن مدى الحياة نظرًا لكبر سنه .

والآن يجىء هذا الصحفى الفرنسى « اليسارى » لكى يقول فى كتابه إن الرئيس فرانسوا ميتران كان فى شبابه ضالعا مع حكومة فيشى الخائنة لوطنها ! والأمر الذى يدعم هذا الاتهام أن

ميتران كان فى الثلاثينات منضما إلى جماعة يمينية متطرفة أقرب إلى الجماعات الفاشية .

أما دفاع الرئيس الفرنسى عن نفسه فهو أنه كان له شرف الاشتراك فى بداية الحرب كجندى فى جيش فرنسا الوطنى إلى أن اجتاح الألمان خط ماجينو ، وسحقوا الدفاعات الفرنسية ، وعندئذ وقع ميتران فى أسرهم ضمن مئات الآلاف من الأسرى الفرنسيين ، ولكنه تمكن من الهرب من معسكر الأسر عام ١٩٤٢ ، وكان عمره فى ذلك الوقت ٢٦ سنة ، ولم يكن يدرى أن حكومة فيشى عميلة للاعداء ، فلم يجد بأسا من العمل فى ظلها ..

كذلك يقول ميتران أنه بالفعل بدأ نشاطه السياسى وهو فى الثامنة عشرة ، كعضو فى جماعة يمينية ، وذلك بحكم إنه ينتمى إلى أسرة ريفية كاثوليكية محافظة ، ولكنه يوضح أنه فيما بعد تحول من اليمين إلى اليسار وليس العكس ، كما أن الجنرال ديجول كان هو الذى اختاره . بعد تحرير فرنسا . للاسهام فى بناء الجمهورية الرابعة وتنبأ له بأنه سيكون له دور فى حكم البلاد .. ومنذ ذلك الوقت المبكر انضم إلى الحزب الاشتراكى حتى أصبح الآن يحمل لقب شيخ الاشتراكيين .

وطول شهر سبتمبر الماضى انشغل الرأى العام الفرنسى بالاتهام الموجه إلى رئيس الدولة ودفاعه عن نفسه ، واقتنع الكثيرون بالحجج التى أوردها ميتران فى حديثيه الصحفى والتليفزيونى فى حين أن آخرين ، وبعضهم أعضاء فى الحزب الاشتراكى . أبدوا أسفهم

لأن رئيسهم وزعيم حزبهم أخفى عنهم ماضيه ، ولم يتحدث عنه إلا بعد أن حاقت به الاتهامات .

وقد بدأ ميتران فترة رئاسته الأولى فى ربيع عام ١٩٨١ ، وانتهت فترة رئاسته الثانية فى مايو الماضى ، وهو يعانى من المرض الخبيث منذ بداية التسعينات وقد أجريت له جراحتان لمحاولة قطع دابر هذا المرض ، الأولى منذ أربع سنوات والثانية منذ سنتين ، ولكن جهود الجراحين لم تفلح ، فقد استشرى الداء ، وتضاعف الألم ، واقترب الأجل ، وتكاثر الخصوم ، وارتفعت الأصوات التى تطالب القائد بالتنحى ، فى حين أصر القائد على إتمام المسيرة حتى آخر يوم له فى الرئاسة .

وفى استفتاء عام أجرى منذ عشرين شهرا قال ٧١ فى المائة من الفرنسيين إنهم يحبذون أن يظل الرئيس ميتران فى منصبه حتى نهاية مدته الدستورية .

وهو ما حدث بالفعل ، فقد أكمل رئاسته ، ثم أكمل عامه الـ ٧٨ فى أكتوبر الماضى .

وفى الانتخابات العامة التى أجريت فى مارس من عام ١٩٩٣ سقط ثلاثة من أقطاب الحزب الاشتراكى وهم رئيس الحكومة السابق ميشيل روكار ووزير الخارجية السابق رولان دوما والأمين العام السابق للحزب ليونيل جوسبان ، وكان لسقوطهم دوى كبير ترك آثارا محبطة على الرئيس ميتران .

والدستور الذى يحكم فرنسا الآن هو الذى وضعه ديجول فى بداية الجمهورية الخامسة ، وهذا الدستور ينسب كل الأمجاد والانجازات إلى رئيس الجمهورية ، ويلقى باللوم إزاء كل خطأ أو تقصير على كاهل رئيس الوزراء .

ولعل من أبرز الانجازات التى حققها ميتران خلال فترة رئاسته الثانية هى أنه اختار امرأة لرئاسة الوزارة من مايو ١٩٩١ إلى أبريل ١٩٩٢ ، وهى السيدة إديت كريسون ، وهو اختيار بدا غريبا لأن تقاليد الفرنسيين لا تسمح للمرأة بتولى المناصب القيادية بسهولة ، حتى إنه فى ظل النظام الملكى السابق لم يكن مسموحا للإناث بالجلوس على العرش خلافا لسائر دول أوروبا .

وعندما قامت الثورة الفرنسية منذ أكثر من مائتى سنة وأسقطت الملكية ، فإنها حظرت على النساء حق دخول البرلمان ، فلم تحصل المرأة الفرنسية على حقوقها السياسية إلا بعد الحرب العالمية الثانية !

كما أنه على مدى المائتى سنة الماضية وأكثر لم تظهر امرأة فى منصب وزارى إلا مرتين أو ثلاثا إلى أن جاءت السيدة كريسون فأدخلت إلى حكومتها خمس وزيرات !!

وكان الرئيس ميتران قد تعرف على هذه السيدة فى عام ١٩٦٧ عندما كان عمرها ٣٣ سنة ، وعمره ٥١ سنة ، وقد ساعدته فى معركته للرئاسة عام ١٩٧٤ ولكنه سقط أمام جيسكار ديستان ،

وفى نفس الفترة رشحت هى نفسها فى انتخابات فرعية ولكنها سقطت أيضا .. ويقال أن هناك قصة حب بينهما ، وأن هذا الحب أثمر طفلا .. وبعض الصحف الفرنسية يحلو لها أن تصف السيدة كريسون بأنها « امرأة من الحريم » وعندما اختارها الرئيس ميتران لكى ترأس الوزارة تساءل بعض نواب اليمين فى خبث .. « هل عادت الملكية إلى فرنسا ؟ ! » وعندما اتهموها بأنها صنيعة ميتران قالت : « ربما كنت الأثيرة لديه ! » .

ولكن المؤكد أنها تؤمن بالمبادئ الاشتراكية بشكل متطرف حتى أن صحف اليمين تشير إليها بعبارة « الباريسية الحمراء » .

والكتب التى صدرت عن ميتران كثيرة ، من أغربها كتاب أصدره صحفى آخر منذ بضع سنوات بعنوان « رسالة مفتوحة من كلب إلى فرانسوا ميتران باسم حرية النباح » .. وقد بيع منه حوالى ٣٠٠ ألف نسخة ، ونفس هذا الصحفى أصدر كتابا آخر فى العام الماضى عنوانه « ميتران والأربعون حرامى » والمتوقع أن تصل مبيعاته إلى نصف مليون ..

ليدى تاتشر

حديث المدفأة

منذ ست سنوات كان الرئيس السوفيتى السابق ميخائيل جورباتشوف فى زيارة خاصة للندن خلال فصل الربيع ، ونشرت إحدى الصحف البريطانية مجموعة من الصور التى تظهر فيها السيدة مارجريت تاتشر . رئيسة الوزراء حينئذ . هى وجورباتشوف وهما فى أوضاع غرامية مثيرة داخل حديقة عامة ، وقالت الصحيفة إن الاثنين يعيشان حالة حب ، ثم اتضح أن الصور كلها مركبة ، وأن الحكاية كلها كذبة ظهرت يوم أول أبريل من عام ١٩٨٩ .. !

وبعد عامين وقع انقلاب أغسطس الفاشل ضد جورباتشوف الذى استطاع أن ينجو من أعدائه ولكنه لم ينج من أصدقائه ، وفى نهاية العام صدرت شهادة وفاة الاتحاد السوفيتى ، ووجد جورباتشوف نفسه . وهو آخر الرؤساء السوفيت ، بلا منصب وبلا حول ولا قوة ، فما بين غمضة عين والتفاتتها لم يعد رئيس دولة ولا زعيم حزب .. وفى نفس العام أيضا سقطت السيدة تاتشر من قمة الحكم فى بريطانيا ، حيث خذلها حزبها وهى فى رحلة إلى الخارج ، فخلعها من زعامة الحزب ومن رئاسة الحكومة .

وفى أكتوبر الماضى صدر فى لندن كتاب جديد يقول إن انهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط جورباتشوف ، وتحول العالم كله من

نظام القطبين إلى نظام القطب الواحد .. كل ذلك جاء بإيعاز من « الليدى » تاتشر خلال اجتماع انفرادى بينها وبين جورباتشوف فى حديث أمام المدفأة فى إحدى ليالى الشتاء عام ١٩٨٤ ، أى قبل نحو خمس سنوات من زيارة جورباتشوف الربيعية إلى لندن .

الكتاب يحمل عنوان « جوربى وماجى » وهما اسما التدليل لكل من جورباتشوف وتاتشر .. ومؤلف الكتاب هو الدبلوماسى الروسى العتيق ليونيد زامياتين الذى كان سفيرا للاتحاد السوفيتى لدى المملكة المتحدة خلال فترة الثمانينات ، وحضر جميع اللقاءات الثنائية الستة التى جمعت بين جوربى وماجى مابين . مدينتى لندن وموسكو . وقد اقترحت بعض الصحف على المؤلف أن يغير عنوان الكتاب إلى « قصة مدينتين » على غرار رواية شارلز ديكنز الشهيرة واقترحت صحف أخرى أن يكون العنوان هو السيدة الحديدية تنصهر وجدا أمام جورباتشوف .

يقول المؤلف السفير إنه ليس هناك زعيم فى الغرب التقى بجورباتشوف ست مرات خلال أقل من خمس سنوات غير السيدة تاتشر .. وحتى قبل مجيء جورباتشوف إلى الزعامة كانت الرحلة الوحيدة التى قام بها هو وزوجته إلى العالم الرأسمالى . هى زيارتهما للندن فى مناسبة أعياد الكريسماس عام ١٩٨٤ . وخلال تلك الزيارة أبدت رايسا جورباتشوف إعجابها بمجوهرات « الليدى » تاتشر وسألتها عن اسم الجواهرجى الذى تتعامل معه ،

لكى تطلب منه طاقما مماثلا لطاقمها الذى كان يتألف من عقد وقرط وسوار ، ولكن السيدة تاتشر رفضت أن تفصح لها عن اسم الجواهرجى .. ثم عادت بعد ساعة فهمست فى أذن الزوج باسم المحل وعنوانه وكيفية الوصول إليه .

وبعد أقل من ثلاثة أشهر توفى الزعيم السوفيتى شيرننكو .. واختير جورباتشوف خلفا له ، حيث كان أصغر من تولى هذا المنصب ، وكانت احتفالات التنصيب مذاعة بالتليفزيون إلى كل أرجاء العالم ، وتابعت السيدة تاتشر الاحتفالات وفجأة لمحت السيدة رايسا جورباتشوف وهى تحيط جيدها ومعصمها وأذنيها بطاقم مماثل تماما لطاقمها .. ويقال إنها اتصلت بالجواهرجى الذى صنع هذا الطاقم وعنفته ، كما اتصلت أيضا بجورباتشوف فى موسكو وعاتبته .

وفى خريف ١٩٨٩ كانت الليدى تاتشر فى زيارة لطوكيو لحضور مؤتمر الاتحاد الدولى للأحزاب الديمقراطية الذى دعا له الحزب الديمقراطى الليبرالى فى اليابان . وهو اتحاد يضم الأحزاب اليمينية فى العالم ويعتبر مناوئا لاتحاد أحزاب الدولية الاشتراكية وفى طريق عودتها حرصت على أن تتوقف فى موسكو لقضاء بضع ساعات تتناول خلالها الغداء فى صحبة جورباتشوف ، وكان هذا هو لقاؤهما السادس والأخير ، ولم يدم أكثر من ثلاث ساعات .

ويقول المؤلف السفير إن العلاقة بين جوربى وماجى بدأت

بمصادمات وخناقات ثم تحولت إلى صلح ، ثم صدام آخر وجفاء ، ثم صفاء وود وانجذاب .

ففى عام ١٩٨٥ بعد مجىء جورباتشوف إلى الزعامة مباشرة ، وبعد أن ظلت تاتشر رئيسة للوزراء لمدة ست سنين .. تبادلت الدولتان طرد الدبلوماسيين والصحفيين ورجال الأعمال . فى مسلسل مثير بمعدل اثنين أو ثلاثة من كل جانب كل يوم ، حتى وصل عدد المطرودين من الجانبين ٦٢ ، وسط اتهامات متبادلة بالتجسس ! وسادت فترة من الجفاء بين الدولتين وبين جوربى وماجى لم يمكن معالجتها إلا بعد أن بعث جورباتشوف برسالة شخصية إلى تاتشر يدعوها للاشتراك فى « مفاوضات ثنائية مباشرة » حول نزع السلاح النووى ! وقبلت السيدة تاتشر بالمفاوضات المباشرة ونزع السلاح ! .. وطارت إلى موسكو فى ربيع عام ١٩٨٧ ، وكانت هذه أول زيارة رسمية لها إلى العاصمة السوفيتية .

ولم يكد يمضى عامان حتى كانت الدولتان قد شرعتا فى فصل جديد من عمليات الطرد التبادلية .. كان ضحاياها ١١ من الدبلوماسيين والصحفيين من كل جانب . وبعدها أصرت موسكو على إنقاص عدد البريطانيين المقيمين لديها – سواء من الدبلوماسيين أو المراسلين الصحفيين أو رجال الأعمال – من ٣٣٠ إلى ٢٠٥ فقط .. ولمدة أربعة شهور فشلت محاولات إثناء موسكو عن موقفها . وإزاء هذا الإصرار من جانب موسكو رأت « الليدى »

تاتشر أن تتحامل على نفسها وتقطع رحلة عودتها من طوكيو إلى لندن لكى تتوقف فى موسكو ، وتتناول الغداء على مائدة جورباتشوف وتتصافى معه . وتم التصافى خلال ثلاث ساعات .

أما اللقاء الحاسم الذى يقول عنه المؤلف إنه أحدث كل هذه التغييرات الكونية التى نراها الآن ، فقد جرى خلال زيارة جورباتشوف الأولى لبريطانيا قبل ثلاثة شهور فقط من توليه الزعامة . حيث كان فى ذلك الوقت عضو المكتب السياسى المسئول عن النقابات والاتحادات .

يقول المؤلف السفير : منذ اللحظات الأولى للقاء جوربى وماجى بدا واضحا أن هناك تجاذبا متبادلا بينهما ، وأن ثمة « كيمياء » تجعل كلا منهما متجاوبا مع الآخر .. وجرى الاتفاق على ترتيب الاجتماع فى استراحة «تشيكرز» وهى البيت الريفى المخصص لرؤساء الحكومات فى بريطانيا . وفى هذا اللقاء تعمدت الليدى تاتشر أن ترتدى أحلى مالديها من ثياب ، واختارت « جونيللة » مفتوحة من الأمام بحيث تكشف « قليلا » عن ساقيها . هكذا يقول المؤلف السفير ، ثم يضيف : وقبل المقابلة كانت عيناها تلمعان وتنطقان بشعور الاشتياق واستعجال اللقاء ، تماما مثل عينى فتاة مراهقة فى أول موعد غرامى لها !

وأعدت الترتيبات بحيث يجلس كل من جوربى وماجى فى كرسى فوتيل أمام المدفأة وكل منهما فى مواجهة الآخر .. وأرادت ماجى أن تضفى على اللقاء جوا من الود والبعد عن الرسميات ، فخلعت

حذاءها ذا الكعب العالى ، وثنت ركبتيها ، لكى تريح قدميها تحتها ، ثم أسندت ظهرها على مسند الكرسى الوثير . لمزيد من الراحة وعدم الكلفة . وعندما فتح كل منهما حقيبته وأخرج أوراقه بادر جوربى قائلا : لماذا لا نستغنى عن هذا « البرشام » (يقصد الأوراق التى دون كل منهما فيها ملاحظاته) ، ونتكلم بلا رسميات؟ ووافقت ماجى على الفور.. وجرى الحديث بينهما سلسالا لمدة ساعتين ونصف الساعة .

وبعد الاجتماع قالت ماجى لمرافقيها : « إننى استطيع أن أعقد صفقة مع هذا الرجل » ويقول المؤلف مفسرا : وبعد حديث المدفأة هذا تحول جورباتشوف ١٨٠ درجة ، وتحول معه وجه العالم ..

ويمضى المؤلف السفير قائلا : كانت المشكلة بالنسبة لنا نحن المرافقين لجورباتشوف هى : كيف نبلغ موسكو بحقيقة ما حدث ؟ وعندما بعثت بتقرير مفصل إلى أندريه جروميكو (وزير الخارجية السوفيتى الراحل الذى عينه جورباتشوف فيما بعد رئيسا للدولة) .. فإنه لم يصدق عينيه ، وطلبنى لكى يقول لى : « ماهذا الهراء الذى تبعث به من لندن ؟ » .

وحدث أن جاء جورباتشوف فى زيارة سريعة لبريطانيا عام ١٩٨٧ بعد سنتين من توليه الزعامة ، وهبط لعدة ساعات فى قاعدة نورتون الجوية .. وكانت السيدة تاتشر فى استقباله وأيضا السفير المؤلف الذى يقول إنه ذهل عندما رأى رئيسة الوزراء ترتدى ثيابا أكثر بهاء من المرة السابقة ، وكانت ثيابها موشاة بفراء « السمور » الأسود وهو

نوع من الفراء يندر وجوده فى بريطانيا وكانت تتعطر بنوع من البارفان ذى رائحة نفاذة .. ويقول المؤلف : دعتنى أتناول قدح من القهوة فى استراحة الضباط بالقاعدة ، وقرأت فى عينيها نفس الشعور بالاشتياق واستعجال اللقاء ، ورغم برودة الجو فقد رفضت أن ترتدى المعطف عندما خرجت من استراحة القاعدة لاستقبال جوربى عند هبوطه من الطائرة .. كانت تريد أن تبدو أكثر جاذبية وأكثر إغراء .. هكذا يقول المؤلف .

ولدى عودتها إلى استراحة الضباط قدموا لها كاس ويسكى . على سبيل التدفئة كما تعودت . ولكنها رفضت قائلة : فلنتناول الفودكا .. وقلبت كأس الفودكا إلى فمها فى جرعة واحدة سريعة تماما مثلما يفعل الروس .

وفى نهاية الكتاب يقول المؤلف السفير إن ما بين جوربى وماجى لم يكن حبا ولا عشقا ، فليس هناك عشق فى عالم السياسة .. ولكن العلاقة كانت جاذبية مغناطيسية متبادلة .. كانت تحترمه وتستشعر السرور والبهجة عند لقائه ، وكانت ترى أنها هى التى اكتشفته من قبل أن يصبح سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى السوفيتى ورئيسا للاتحاد السوفيتى .. إنها هى التى صنعت منه زعيما . وكانت تشتاق له اشتياق المكتشف إلى كشف عظيم تمكن من إنجازه ، أو اشتياق الصانع لرؤية « صنيعته » ..

ويوم ١٤ أكتوبر فى عيد ميلادها السبعين .. تلقت من جوربى

تهنئة تعكس العلاقة الشخصية ، فضلا عن العلاقة السياسية ، أما زملاؤها فى حزب المحافظين البريطانى فقد احتفلوا بعيد ميلادها طوال شهر أكتوبر .

وهى الآن تعمل – منذ ثلاث سنوات – « مستشارة » لواحدة من كبريات شركات السجاير الأمريكية بمرتب قدره مليون دولار فى السنة .. أما جورباتشوف فقد أنشأ معهد للدراسات وهو يعتمد فى دخله على المحاضرات التى يلقيها خارج بلاده . ذلك لأن المعاش الذى تصرفه له حكومته يعادل – بعد التسوية – ٨٦٠ دولارا شهريا .

والسيدة تاتشر حصلت من الملكة على لقب « بارونة » أو « ليدى » .. وقد نشرت أخيرا مذكراتها فى جزءين كبيرين معظمها هجوم على جون ميجور رئيس الوزراء البريطانى الحالى ، وكانت هى التى اختارته لهذا المنصب ، وكانت تعتبره أيضا صنيعتها ولكنه تمرد عليها .. وهى فى هذه المذكرات لا تكاد تذكر جوربى إلا فى إشارات عابرة ، كأنهما مسافران غريبان تلاقيا صدفة فى محطة ترانزيت ، ثم افترقا .. □

بوريس يلتسين
بعده الطـــوفـان

موطنه الأصلى جبال الأورال التى تعتبر الفاصل الجغرافى بين روسيا الأوروبية وروسيا الآسيوية فهو خليط أوروبى آسيوى ، مزاجه متقلب بين دفء الشرق وبرودة سيبيريا ، أما فكره السياسى فيتجه نحو أوروبا والعالم الجديد .

وزنه ثقيل ، يحب الأكلات الدسمة ويعشق الكحوليات .. خلال زيارته الأخيرة لكل من الولايات المتحدة وفرنسا ، لمدة خمسة أيام ، أفرط – على مايبدو – فى لهط الدهنيات وارتشاف الـ« درای مارتينى » والنبيذ الفرنسى و« عَب » من الحياة الحلوة ، ومن السهر أكثر مما يحتمله قلبه الذى عانى أزمتين من قبل فعاد إلى بلده لكى يصاب بأزمة قلبية ثالثة ، أدخلته المستشفى وأعاقته عن مهام الرئاسة لمدة شهرين .

عمره الآن ٦٤ سنة ، فى حين أن متوسط الأعمار فى روسيا حوالى ٥٧ سنة ، أى أنه قد جاوز العمر الافتراضى بسبع سنوات . وكان المفروض أن يتحفظ فى طعامه وفى شرابه ، وأن يريح قلبه العليل ، ويستمع إلى نصائح أطبائه . ولكن أطباءه يقولون أنه مريض غير ملتزم ولا مكترث ، ففيه طفولة تجعله أقرب إلى الولد الشقى الذى لا يستجيب للنصح ، ولا يقلع عن أهوائه ونزواته .

ورغم أن الكثيرين من رؤساء الدول اعتذروا عن عدم حضور

احتفالات . الأمم المتحدة باتمام عامها الخمسين .. فإنه لم يشأ أن يعتذر مثلهم رغم أن صحته أكثر هشاشة منهم ، وأصر على أن يطير إلى نيويورك ، وأن يشاهد من الجو تمثال الحرية ، وأن يقف فى طابور الملوك والرؤساء الذين اصطفوا لأخذ الصور التذكارية لهم .

وفى ضاحية « هايد بارك » الجميلة التى تقع على مشارف مدينة نيويورك ، وعلى مرأى من مبنى الأمم المتحدة .. التقى مع الرئيس الأمريكى كلينتون فى قمة « مصغرة » على هامش الدورة الخمسينية للمنظمة الدولية وقال بعد اللقاء : « كان اجتماعنا هذا هو أحلى اجتماع ، وكان أكثر اجتماعاتنا ودا وصفاء وتفهما » ولم يدر بخلده أنه يمكن أن يكون آخر اجتماع قمة من نوعه إذا – لا قدر الله – كانت أزمته القلبية الثالثة هى آخر الأزمات .

ولم يظهر عليه الاكتئاب إلا عندما سأله الصحفيون عما إذا كان لقاؤه بالرئيس الأمريكى قد انتهى إلى كارثة .. حيث رد عليهم بتجهم : الكارثة هى أنتم .

وقبل يوم واحد من الأزمة القلبية الأخيرة نشرت له صورة وهو يقرص إحدى سكرتيراته من كتفها ، بينما بدت على السكرتيرة علامات الذهول .

ورغم انغماسه فى ملذات الحياة .. فهو قليلا ما يبتسم ، بل إنه يبدو فى معظم صوره وهو فى حالة اشمئناط .

وفى موسكو يشتد الآن الصراع على خلافته فى منصبه فى حالة إذا ما .. فلو حدث الأسوأ ، وأدى الأمر إلى عجزه عن مواصلة الأعباء الثقيلة للرئاسة فسوف يتولى رئيس وزرائه – حسب الدستور الجديد الذى بدأ العمل به منذ سنتين فقط – مهام القائم بأعمال الرئيس ، على أن يدعو إلى أجراء انتخابات رئاسية خلال ثلاثة شهور .. وستكون شهورا مفعمة بالتوتر ، والأغلب أنها ستنتهى بمفاجأة يصعب التكهن بها الآن .

وعندما أجريت الانتخابات العامة فى ديسمبر الماضى كانت العناصر البارزة فى هذه المعركة الانتخابية هى : الشيوعيون السابقون والقوميون المتطرفون ، وكلاهما يشعر بالسخط على الحالة التى انتهت إليها روسيا ، حيث لم تعد قوة عظمى ولا عادت كلمتها مسموعة فى أى محفل دولى .. ولن يكون مستبعدا أن يقوم تحالف بين طرفى النقيض ، حيث أن الشيوعيين يحلمون بإعادة بناء الإمبراطورية السوفيتية . كما أن القوميين يريدون استعادة أمجاد الإمبراطورية الروسية .

وفى روسيا يطول الشتاء ويقسو على البشر ، ويلفهم بزمهريره .. ولكن شتاء روسيا الحالى سيكون – على غير العادة – ساخنا !

أما يلتسين نفسه فيبدو غير مكترث لشىء وكأنما هو يخرج لسانه للجميع ويقول لهم : من بعدى الطوفان !

ومنذ طفولته ظهرت عليه بوادر الشقاوة المبكرة ، فقد تشاجر

مع معلمته وهو فى الصف الأول الابتدائى لأن هذه المعلمة طلبت منه أن يحمل تموين منزلها من كانتين المدرسة إلى مطبخ بيتها ، ورفض أن يكون « شيالا » لهذه المعلمة المتعجرفة ، وشكاها إلى الناظر ، واقتنع الناظر بشكواه ، وانتهى الأمر بفصل المعلمة من المدرسة ، وأحس الطفل الشقى بنشوة الانتصار ..

إلا أن هذا الانتصار المبكر حوله إلى « فتوة » فدأب على ضرب أقرانه ، وفى إحدى المرات اشتبك فى خناقة حامية مع تلميذ أكبر منه ، وحمى الضرب بالأرجل والأيدى ، ولكن خصمه تمكن فى النهاية من توجيه لكمة له كسرت أنفه ، ولا تزال آثار هذا الكسر واضحة عليه حتى الآن .

وحدث أن عثر على قنبلة يدوية أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت من بقايا فلول القوات النازية عند انسحابها من الأراضى الروسية ، وراح يعبث بالقنبلة ، ثم حملها إلى مكان بعيد ، وأراد أن يحطمها بواسطة مطرقة ، وانفجرت فيه ، فطار معها أصبعا الإبهام والسبابة من يده اليسرى ، وهى عاهة عاش بها طوال حياته ، ويحاول الآن أن يخفيها بأن يدس يسراه فى جيب سرواله .

مؤهله الجامعى : بكالوريوس هندسة دفعة عام ١٩٥٥ .. وزوجته أيضا مهندسة ، ولهما ابنتان إحداهما مهندسة ميان والثانية مهندسة كمبيوتر .

وفى بداية اشتغاله بالسياسة كان يقول أن جميع المشاكل يمكن أن تحل بالمعادلات الهندسية ، وأن السلطة هى مجموعة من الخطوط المستقيمة والدائرية والمتعرجة وأن أشكال الحكم فيها المستطيل والمتوازى وشبه المنحرف .

ويبدو على بوريس يلتسين إنه طراز من البشر الذى لا يطيق الهزيمة ولا يقبل بها مهما كان الثمن . فهو عندما دخل فى صراع مع البرلمان فى خريف عام ١٩٩٣ لم يتورع عن إصدار الأمر بقصف مبنى البرلمان بالمدافع وتحطيم نوافذه وجدرانه فوق رؤوس النواب .

وقبل ذلك بسنتين جاءت محاولة الانقلاب الفاشلة ضد جورباتشوف فى أغسطس ١٩٩١ وهى المحاولة التى سعت لإعادة سطوة النظام الشيوعى .. وما كاد يصدر البيان رقم واحد لمدبرى الانقلاب .. حتى ترك يلتسين مقر الرئاسة ونزل إلى الشارع وسط المظاهرات المناوئة لمحاولة الانقلاب ، ثم صعد فوق دبابة ، وخطب فى الجماهير قائلا : « لا تخافوا من دعاة الانقلاب فإن دباباتهم من ورق ! .. اجعلوا من أجسامكم سياجا يقف فى وجه الدبابات والمصفحات ويوقف سيرها لكى تصبح كل دبابة وكل مصفحة مثل البطة العرجاء ، لا تستطيع أن تتقدم ولا تملك أن تستدير » . وسقط بعض المتظاهرين تحت جنازير الدبابات ، ولكن الانقلاب فشل بعد قيامه بثلاثة أيام . وأصبح يلتسين زعيم الشارع بلا منازع .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى ينزل فيها إلى الشارع ..

ففى عام ١٩٨٧ عندما طردوه من عضوية المكتب السياسى . بسبب مشاغباته ، وحرموه من السيارة الفارهة التى كانت مخصصة لتنقلاته راح يستخدم وسائل المواصلات العامة ويزاحم الجماهير فى ركوب الأوتوبيس ومترو الانفاق ، ويقف فى طوابير الجمعيات التعاونية للحصول على طعامه وكسائه .. وعندما حظروا عليه العلاج هو وأسرته فى مستشفيات الكرملين الباذخة .. سجل نفسه فى كشوف المستوصف الشعبى للحى الذى يقيم فيه ..

والتف حوله الكادحون واعتبروه مثلهم الأعلى وزعيمهم الذى يحس بنبضهم ويعايش مشاكلهم .

لذلك فإنه لم تكد تمضى سنتان على طرده من المكتب السياسى حتى رشح نفسه لرئاسة البرلمان ونجح ، ثم لرئاسة الجمهورية ونجح باكتساح .. فى حين ظل الشيوعيون يعتبرونه زعيما ديماجوجيا .

ولم يكد يتولى الرئاسة حتى بدأ فى نشر مذكراته التى تناول فيها تفاصيل الحياة الخاصة لأقطاب الحزب الشيوعى ، فقدم وصفا دقيقيا للترف الذى كان يتمرغ فيه هؤلاء الأقطاب ، والامتيازات التى كانوا ينعمون بها ، من طائرات خاصة وقصور ريفية ومأكولات ومشروبات فاخرة تصل إليهم فى مقار إقامتهم الشتوية والصيفية فضلا عن الأدوية والعقاقير المستوردة والخدم والحشم .. وراح يقارن بين هذه الحياة الرغدة وبين المواطن العادى الذى يلاقى شظف العيش .

وبحكم مولده يوم أول فبراير فهو ينتمى إلى برج الدلو ..

ويتميز مواليد هذا البرج بالميل إلى التجديد . ومن أبرزهم الرئيس الأمريكى الراحل فرانكلين روزفلت الذى تولى الرئاسة أربع دورات متتالية ، والسياسى الروسى أندرية جروميكو الذى ظل يشتغل بالدبلوماسية ٤٠ سنة ، وانتهى إلى منصب رئيس الدولة ، وهو منصب صورى وضعه فيه جورباتشوف فى بداية زعامته للحزب عام ١٩٨٥ ثم إزاحه بعد عامين لكى يموت كمدا بعد عامين آخرين ، ثم لكى يفقد جورباتشوف نفسه كل مناصبه بعد عام آخر ..

بينظير بوتو

ذات الشـــال

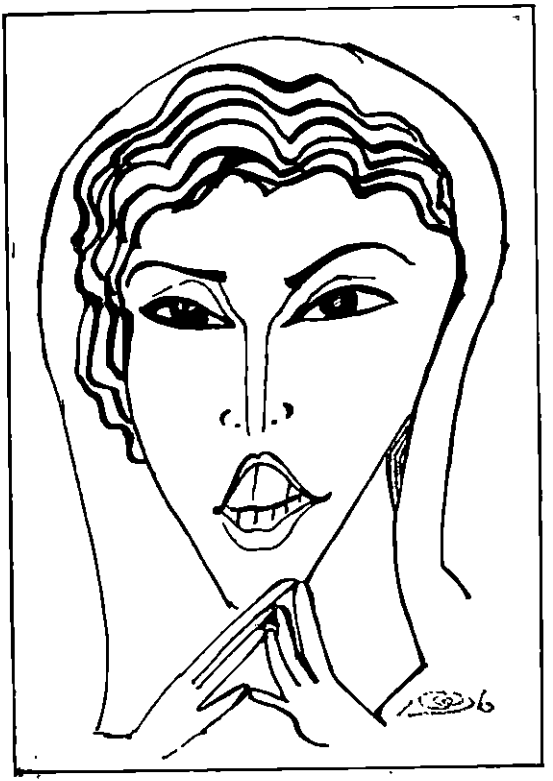

رأت والدها يساق إلى حبل المشنقة وينفذ فيه حكم الإعدام ثم يدفن بلا جنازة .. ولقى شقيقها مصرعه . وهو فى المنفى . بأيدى خصومها السياسيين .. وفى معركة الانتخابات الأخيرة .. وقف شقيقها الآخر فى صف خصومها ، وهاجمها بعنف ، وقال إنه هو الأولى بتولى زعامة الحزب الذى أسسه والدهما ذو الفقار على بوتو ، وبتبوء رئاسة الحكومة بدلا منها .. وحتى أمها وقفت ضدها !

ولم تهتز لها شعرة ، ومضت فى خطواتها الوئيدة .. إلى أن استطاعت أن تسحق منافسها الرئيسى نواز شريف ، بعد أن اقتحمت قلعته المنيعة فى بيشاور ، واستطاعت أن تغرى جناحا كبيرا من حزبه . الرابطة الإسلامية . بالانشقاق عنه والانضمام إلى صفوف مؤيديها .. وأصبحت رئيسة وزراء للمرة الثانية خلال أقل من خمس سنوات .

فى أواخر عام ١٩٨٨ ، أصبحت أول رئيسة حكومة فى دولة إسلامية فى التاريخ الحديث ، وبعد ثلاثة شهور من تقلدها المنصب أنجبت طفلتها الثانية .. فأصبحت أيضا أول امرأة تنجب وهى فى سدة الحكم .

وفى منتصف صيف ١٩٩٠ اختلفت مع رئيس الجمهورية اسحق خان ، الذى اتهمها هى وزوجها بممالأة الفساد ، وأصدر فرمانا بإقالة حكومتها ، وخرجت من الحكم يوم ٢ أغسطس ، وكان يوم الروع ، لأنه نفس اليوم الذى جرى فيه الغزو العراقى للكويت .. وانصرفت أنظار العالم إلى منطقة الخليج . ولم يلتفت أحد لما حدث فى إسلام أباد .

وتولى خصمها نواز شريف رئاسة الحكومة ، وهاجمها بوحشية وهى فى المعارضة ، وقدم زوجها إلى المحاكمة بتهمة الفساد ، ولكن المحكمة برأت ذمته من معظم التهم المالية المنسوبة إليه . وأفرج عنه فى اليوم التالى لإنجاب الابنة الثالثة . وأطلق الأبوان اسم « عاصفة » على المولودة .. ولم يستغرب أحد فالأب اسمه عاصف .. وهو ابن على زارداری زعيم حزب « عوامى » .

وعندما تزوجت بينظير من رجل الأعمال عاصف زارداری .. منذ ست سنوات .. حضر حفل العرس ٢٠ ألف مدعو .. أما فى حملتها الانتخابية الأخيرة فقد تجمع أكثر من مائة ألف متطوع للدعاية لها .

وعندما شرعت فى تشكيل وزارتها الجديدة .. سعت إلى ضم المستقلين وبعض الأحزاب الصغيرة إلى الائتلاف مع حزبها . (حزب الشعب) لكى تتحقق لها الأغلبية البرلمانية ، وكان أسرع

هذه الأحزاب إلى الانضمام إليها هو حزب عوامى الذى يتزعمه حماها .. أما أول شيء فعلته فى التشكيل الجديد فكان إسناد منصب وزارى إلى زوجها .

وهذا الزوج أقصر منها فى القامة ، وعندما يقف بجوارها فإن رأسه تصل بالكاد إلى مستوى كتفيها ولذلك فهو لا يظهر معها كثيرا فى الأماكن العامة .. وإذا ظهر فهو يتعمد ألا يقف بجانبها .

ولعل أبرز صفة تميزها هى هدوء الأعصاب ، فهى لا تبتهج كثيرا بالنجاح ولا تبتئس عند الفشل .. وقد شهدت فى حياتها العديد من الكوارث . فلم تلطم الخدود أو تشق الجيوب .. وربما كانت تستمد هذه الصلابة من إيمانها العميق ، وارتباطها القوى بالدين الإسلامى .. وفور فوزها فى الانتخابات توجهت إلى الأراضى المقدسة لأداء شعائر العمرة والزيارة النبوية الشريفة ، والتقت فى جدة بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، ثم طافت بدول الخليج الإسلامية .

وهى تحرص على ارتداء الزى الإسلامى ، ولا تتخلى أبدا عن الشال الأبيض الذى تحيط به رأسها وجيدها .. وهو منسوج من خيوط حريرية نصف شفافة ، وعندما تخطب فى الجماهير وتأخذها الحماسة فإن الشال ينحدر قليلا عن رأسها وينسدل إلى كتفها ، فتسارع هى إلى إعادة تدويره وإحكام لفاته حول شعرها وجيدها .

فيها عبق الشرق .. ولها كتاب عنوانه « ابنة الشرق » هو

بمثابة سيرة ذاتية لها ، تروى فيه ذكرياتها عندما كانت تدرس بجامعة هارفارد أشهر الجامعات الأمريكية ثم بجامعة أكسفورد أعرق الجامعات البريطانية ، حيث اختاروها هناك رئيسة لاتحاد الطلبة . كما تروى الأيام الأخيرة فى حياة والدها عندما كانت ترى الرسل يجيئون كل يوم لكى يعرضوا على الأسرة انقاذ عائلها من حبل المشنقة مقابل تقديم الاعتذار لرئيس الدولة الذى كان فى ذلك الوقت الجنرال ضياء الحق .. وكان والدها هو الذى اختار هذا الجنرال قائدا لجيش باكستان ولكنه انقلب عليه ثم أوعز بمحاكمته والحكم عليه بالإعدام .

وكانت الأسرة تستطيع حتى اليوم الأخير فى حياة عائلها أن تنقذ حياته بتقديم الاعتذار المطلوب .. ولكنها رفضت الإقدام على هذه المذلة .. وآثر جميع أفراد الأسرة . وفى مقدمتهم الأب . الموت على الإذلال .

وبعد إعدام بوتو بتسع سنوات لقى الجنرال ضياء الحق مصرعه فى حادث طائرة لم يتضح حتى الآن ما إذا كان مدبرا أم وقع قضاء وقدرًا .

وتزعمت بينظير نفس الحزب الذى أسسه والدها منذ نحو ثلاثين سنة ، وهو (حزب الشعب) وظلت تناضل بجهد أعيا كل الزعماء الرجال ، وتعرضت للسجن تارة ثم للنفى تارة أخرى ..

إلى أن أزيلت الغمة ، وعدت الديمقراطية إلى باكستان وأجريت انتخابات حرة فى نوفمبر ١٩٨٨ فاز فيها حزب الشعب باكتساح . وتولت بينظير رئاسة الحكومة فى ديسمبر ، وهو نفس الشهر الذى تولى فيه والدها الرئاسة قبل ١٨ عاما .

وفى الوزارة الأولى لسيدة بينظير اختارت والدتها البيجوم نصرت نائبة لها .. أما فى هذه الوزارة الثانية فقد كان الشقاق قد وقع بين الأم والابنة . كما دأبت الأم على مهاجمة زوج ابنتها ، وقالت بعد الإفراج عنه أنه « رد سجون » !

وبعد أن أمضت بينظير بوتو أكثر من ثلاث سنوات فى صفوف المعارضة .. فإنها الآن قد أعادت رسم خطاها وتحديد مسارها ، كما أصبحت تلقى تأييد قادة الجيش لها خلافا لما كان الحال فى المرة السابقة ، وذلك فضلا عن نجاحها فى السيطرة على إقليم البنجاب الذى يضم وحده ٧٠ مليون نسمة بالإضافة إلى إقليم السند الذى هو مسقط رأس أسرتها ، فضلا عن كسب الملايين الذين كانوا يناصرون خصمها من داخل قلعته فى المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية التى عاصمتها بيشاور .

ولعل أكبر اختبار لها الآن هو مشكلة كشمير .. وهى تكاد تكون مشكلة أزلية ، فقد نشأت مع استقلال كل من الهند وباكستان عام ١٩٤٧ ، وعجزت كل المحافل الدولية والأقليمية عن إيجاد التسوية

لها ، وأصبح يضرب بها المثل فى العلوم السياسية ، كنموذج للمشكلة التى ليس لها حل .

وهذه المشكلة تشتد وتشتعل كل بضعة أعوام ، وبسببها خاضت الهند وباكستان حربين كبريين فى عام ١٩٤٨ ثم فى عام ١٩٦٥ . ثم اشتبكت الدولتان فى حرب ثالثة عام ١٩٧١ عندما كان بوتو رئيسا للجمهورية كان سببها هذه المرة « تمرد » باكستان الشرقية وفى ذلك الوقت بذل بوتو جهودا يائسة لمنع انقسام باكستان ولكن الجانب الشرقى استقل وأصبح الآن دولة بنجلاديش التى ترأس حكومتها أيضا سيدة هى البيجوم خالدة .. المهم أن معارك عام ١٩٧١ امتدت أيضا إلى مقاطعة كشمير .

وقد تشكلت فى السنوات الأخيرة جبهة لتحرير كشمير يرأسها زعيم كشميرى اسمه أمان الله خان .. ويطالب باستقلال المقاطعة ورفض الانضمام إلى باكستان أو الهند .. وتطالب الهند برأسه ، وتتهمه بقتل عدد من جنودها ، وهو يعيش فى المنفى متنقلا بين دول أوروبا .. وقد اعتقلته السلطات البلجيكية أخيرا بناء على أوامر من الأنتربول .. وتنظر محكمة بروكسل فى أمر ترحيله إلى الهند لمحاكمته هناك . وهذا الترحيل من شأنه أن يثير استياء باكستان .

ومنذ خمسة أعوام ثارت المشكلة من جديد عندما أعلن أربعة ملايين مسلم الثورة على الحكم الهندوكى ، فردت السلطات الهندية بإعلان حظر التجول بالمقاطعة واتهمت باكستان بتقديم العون للثوار

المسلمين .. وبدأ كل جانب يحشد قواته على خط وقف إطلاق النار متجاهلين اتفاقية سيملا التى وقعاها عام ١٩٧٢ والتى تقضى بإقامة منطقة عازلة منزوعة السلاح بينهما بعمق ١٠ كيلو مترات .

وفى السنتين الماضيتين . التهبت المشكلة مرة أخرى حيث حاصرت القوات الهندية مسجدا استولى عليه أربعون من المتطرفين واحتجزوا بداخله أكثر من ١٥٠ من الرهائن .. وتظاهر المئات أمام المسجد للمطالبة بفك الحصار عنه ، فالقت عليهم قوات الأمن الهندية القنابل المسيلة للدموع لتفريقهم .

ومن جهة أخرى فإن الولايات المتحدة تهدد بإدراج باكستان ضمن الدول التى تمالئ الإرهاب ، وذلك بسبب استمرارها — سرا — فى العمل على إنتاج قنبلة نووية ستكون الأولى فى أى دولة إسلامية .. وفى باكستان الآن ملايين من اللاجئين الأفغان وبسببهم حصلت على مساعدات أمريكية بالمليارات .

وفى يونيو الماضى احتفلت بينظير بعيد ميلادها الأربعين .. وبهذه المناسبة أعربت عن استعداد حكومتها لبدء حوار جاد وبناء لتسوية النزاع حول كشمير ، وبعثت هذا العرض فى رسالة إلى ناراتسيما أو رئيس وزراء الهند ، ردا على برقية تهنئة منه بمناسبة فوزها بمقعد رئيسة الوزراء للمرة الثانية .